افتح لي أبواب التوبة يا واهب الحياة

القدّيس إينوكنديوس أسقف خيرسون

"افتح لي أبواب التوبة يا واهب الحياة، لأنّ روحي تبتكر إلى هيكل قدسك!"

إذا اعتمدنا على ذواتنا وجهودنا الشَّخصية، لن نستطيع أن ننال التحرُّر الحقيقيّ من الخطيئة والبرَّ أمام الله، ولا حتَّى أن نفتح لأنفُسنا أبواب التَّوبة – أي أن نتوقّف عن العيش في المعصية! ومَن لم يختبر شخصيًّا فِعلَ التوبة الحقيقيّة وقوّتها قد يتساءل قائلًا: "ولكنْ هل هذا صحيح؟ كنتُ أستطيع أن أخطأ، فلماذا إذًا لا يمكنني أن أترك الخطيئة وأبدأ حياةً بارَّة؟ إنَّ حريَّتي تعني أنّي حرٌّ لفعل ما أشاء. لا تسلبُني الخطيئة حرّيّتي، إذًا فهي لا تسلب الفرصة للتوقُّف عن ارتكاب الخطيئة" – هذا مَنطقٌ خدَّاعٌ يُظهر أنَّ أولئك الذين يفكّرون بهذه الطريقة لم يتعهَّدوا عمل التوبة مطلقًا كما ينبغي لهم أن يفعلوا. تعهَّدوا هذا العمل وستعرفون عندها ما تعنيه الخطيئة، وما الذي تفعله بحرّيّتكم، وكم يصعب النهوض من خندق الأهواء.

من المؤكَّد أنّ الخطيئة لا تجرِّدُنا من حريَّتنا التي هي قدرة ضروريّة في تكوين النَّفس، لكنَّها تفعل ما يفعلُه الصدأ بالحديد. فكما أنَّ الحديد الصدِئ يفقد قوّته إلى درجةِ أنَّ ما كان غير قابلٍ للكسرِ بمجهودٍ عظيمٍ يمكنه الآن أن ينكسر ويتهتَّك بفعلِ ضربةٍ واحدة، مع أنّ حجمَ الحديد وكمّيّته لم يتغيَّرا، كذلك لا يتبقَّى من الخاطئ سوى شبح حرّيّة. في بعض الأحيان، يكون الخاطئ ظاهريًّا أكثر حرّيَّةً من الإنسان البارّ المُقيَّد دائمًا بضميره ومخافة الله، ولكنَّه لا يمتلك قوَّةً داخليةً لفعل الصلاح، ويكون ضعيفًا، كطفلٍ صغير، عندما يبذل مجهودًا ضئيلًا للقيام بأيّ عملٍ صالحٍ. لمَ الأمر كذلك؟ دعونا نستخدم مقارنةً أخرى: بالخطيئة يحدثُ الأمر نفسُه الذي يحدث عندما يُستخدَم المغناطيس على نحوٍ خاطئ. فمثلما يفقد المغناطيس قوَّته في جذب الحديد وتحديد الاتِّجاهات الرئيسة، هكذا تخسر حريَّتُنا القوّةَ لتجذب إليها الإرادةَ والرغبة، ولتعملَ معهما وفقًا لناموس الضمير.

هذه هي خاصّيَّة الخطيئة؛ وفي الوقت عينه، هذه هي عقوبتها: أن يخسر الخاطئ، بعد كلّ إثمٍ، جزءًا من قدرته على صنع البرّ. إنَّ هذه الخسارة، مع استمرارِ الحالة الخاطئة، تبلغُ في النهاية مرحلةً يصبح فيها

الخاطئ المسكين عبدًا لأهوائه وعاداته الشرّيرة بالكلّيّة. فلا يعود بإمكانه أن يخرج من خندق الأهواء من دون مساعدة شخصٍ آخر؛ وليس ذلك فحسب، بل ويصعُب عليه حتَّى أن يفكر في العودة إلى الطريق الصحيح. إذا كنّا لم نختبر هذا بأنفسنا بعد فيما نحن سالكون طريق الإثم، فإنّ ذلك علامةٌ مؤكّدةٌ على أنّنا لم نبدأ بالتوبة الحقيقيّة عن خطايانا. لربّما كانت توبتنا شفويّةً، أو قد تكون قد أحدثت بعض التغيير المؤقّت في أفعالنا وعلاقاتنا، ولكنْ من الواضح أنّها لم تبلغ مَكمَن الشرِّ عَينه في داخلنا؛ لم تدخل إلى قلوبنا ونفوسنا. وإلّا لكُنَّا شعرنا بما شعر به جميع أولئك الذين تابوا توبةً حقيقيّة: لكنّا رأينا القوّة المريعة التي للخطيئة والأهواء؛ لكُنّا عرفنا كلّ ضعفِ إرادتنا وذهننا؛ لكُنّا بلغنا إحساسَ القنوط عينه الذي شعر به ذلك الإنسان الذي صرخ قائلًا: "أخرِجْ من الحبس نفسي لكي أشكر اسمك" (مزمور 141: 8).

لذلك، فإنّ الرجاء الأوّل والأخير لأولئك الذين يتوبون بحقٍّ هو ليس ذواتهم، ولا أذهانهم وقلوبهم، بل نعمة الله. يعترفون بتواضعٍ بأنَّه إن لم يبنِ الربُّ بيت نفوسِهم، فباطلًا تكون أتعابهم وإنجازاتهم لتقويمها: من دون المعونة من العُلى، تبقى النَّفسُ خرابًا على الرغم من جهودهم كلِّها. ويجعلهم هذا الإحساس بضعفهم الشخصيّ يوجِّهون أنظارهم نحو الأعلى، مُصلِّين إلى الإله الحيَّ العظيم، وطالبين منه أن يرسل نعمة التوبة، وأن يمنحهم القوّة ليُبغضوا الخطيئة ويكسروا رُبُط الأهواء، ويحبّوا النقاوة والحقَّ ويقتنوهما ويحافظوا عليهما، وهاتان غريبتان عن الخاطئ ومكروهتان لديه.

تعبّر عن هذه المشاعر عينها الترتيلةُ المؤثّرة التي أوردناها في بداية حديثنا، أيّها الإخوة. وبما أنّ الكنيسة المقدّسة تردّدها كلّ أسبوعٍ، دعونا نتعمّق فيها ونتأمّلها أكثر قليلًا.

"افتح لي أبواب التوبة يا واهب الحياة!".

وكأنَّ الخاطئ التائب يقول: "أنتَ نفسُكَ يا واهب الحياة ترى أنّني، منذ زمنٍ طويل، لم أعُد أجدُ، أنا البائس، حلاوةً في كأس الخطيئة والإثم السامّة. أنتَ ترى مدى صدق رغبتي في تغيير حياتي غير النقيّة، وكم قمتُ تكرارًا باستجماع قوّتي كلِّها لأكسر رُبُط عاداتي الإجراميّة، وأتحرَّر من الشبكة الخبيثة التي اصطادني بها عدوّي. ولكن ما نتيجةُ جهودي كلِّها؟ ما هي خاتمة عهودي وقراراتي المتكرّرة التي أقدّمها مرارًا بأن أُعرِض عن الخطيئة وأتبعَ طريق وصاياك؟ وأسفاه، لن أمتلك الوقت الكافي لأنقّي نفسيَ بدموع التوبة، بما أنّني أعود

فأسقط في حمأة الأفكار الدنِسة والأفعال الشائنة! لهذا السبب وحده، على ما يبدو، يمنحني عدوّي الشَّرس بعض الحرّيّة الروحيّة – ليأخذها لاحقًا ويحطِّم كلّ شيءٍ فعلتُه في أثناء توبتي.

سابقًا، كان بإمكاني، أنا المتهوّر، أن أتّكل على قوتي، متخيّلًا أنّني سأتوقّف عن ارتكاب الخطيئة متى أردتُ ذلك. ولكنِ الآن، بعد الكثير من الخبرات الشقيّة، أرى أنّني عبدٌ بالكامل للخطيئة، وأنَّ أهوائي أقوى منّي إلى أبعد الحدود، وأنّي إذا تُركتُ وحيدًا مع قلبي وذهني، فإنّ عدوّي سيجرّني من برّيةٍ إلى أخرى، إلى أن يزجَّ بي في هاوية الجحيم. لذلك، فإنّني أتخلّى عن كلِّ رجائي في ذاتي، وأضع كلَّ رجائي فيكَ يا ربّي ومخلّصي؛ فيكَ يا من لا حدود لقدرتُكَ ولا نهاية لرحمتكَ؛ فيكَ يا مَن تستطيع إعادة خلقِ قلبي الأشدّ شرًّا بروحك القدّوس. انظر إلى هذا الخاطئ المسكين، العاجز ولكنِ الذي يرجو الخلاص، وامنحني روح التوبة التي تتلاشى كطيفٍ كلّما استدرتُ نحوك قائلًا: "افتحْ لي أبواب التوبة!". ولا تفتحها فقط، بل قُدْني عبرها، قُدني إلى الداخل وأبقِني في غسل التجديد هذا إلى أن أغتسل من كلّ درنِ خطيئتي، إلى أن تُشفى كلُّ جراح ضميري، إلى أن يُطرَدَ كلُّ شرٍّ من نفسي وتبقى فيها صورتك الإلهيّة فقط.

هكذا يصلّي التائب الحقيقيّ. وهكذا يجب أن نصلّي نحن أيضًا إذا كنّا نرغب حقًّا في التحرُّر من خطايانا وعادات المعصية، تحرُّرًا حقيقيًّا ودائمًا، ليس بالكلام فقط، وليس لفترةٍ من الزمن فحسب. كونوا واثقين، أيّها الإخوة، من أن لا أحد يمكنه فعل ذلك سوى الربّ الكليّ القدرة؛ إذ عند تغيير الأخلاق والحياة، يجب أن تحصل معجزة لا تقلُّ قدرًا عمّا حصل عندما خُلِقنا من العَدَم. أو بالأحرى، فلنتجرّأ على القول إنّ خلقَنا كان أسهلَ من إعادة خلقِنا، لأنَّه في ذلك الحين [عند الخلق]، لم يُعِق شيءٌ فينا قدرة الله؛ أمّا الآن، عند إعادة خلقِنا روحيًّا، فيجب أن يتغلّب الله على الشرّ الكامن في قلوبنا ويستأصله ويغيِّر حرّيّتنا بذاتها إلى الأفضل. إنّ الحرّيّة لفعلِ الصلاح ضعيفةٌ للغاية في الإنسان الخاطئ، ولكنَّها قويّةٌ لارتكاب الشرور ومقاومة نعمة الله.

عندما نُلقي بأحزاننا ورجائنا على الربِّ، دعونا يا إخوتي لا نكون متفرِّجين خاملين نشاهد دمارنا الشخصيّ من جرّاء الخطيئة. نحن لا نقدر على تجديد أنفسنا بالروح، مثلما لا نقدر على الدخول مجدّدًا إلى أرحام أمّهاتنا، ولكنْ يُمكننا، ويتوجَّب علينا، أن نمتلك رغبةً متّقدةً لنيل إعادة الولادة هذه وأن نلتمسها من الربّ؛ يمكننا، ويتوجَّب علينا، أن نُقصي من أنفسنا كلَّ ما يعيقُ ذلك في داخلنا ويمنعُ قوّة النعمة من العمل فينا.

إنَّ هذه الترتيلة التي نتحدّث عنها تُلهمنا بكلماتها التالية. ما الذي تقوله بعد ذلك: "لأنّ روحي تبتكر إلى هيكل قدسك!". أترون ما الذي ينهمك فيه التائب الحقيقيّ؟! إنَّه لا ينام ولا يضطجع متكاسلًا مثل خاطئٍ غير تائب، بل ينهض باكرًا من سريره فيما لا يزال الجميع غافين؛ يبدأ عمله قبل أن تنشط الفئران. وما الذي يشغله طيلة الوقت؟ يشغله عمل خلاصه: "لأنّ روحي تبتكر إلى هيكل قدسك"، أي أنّها تتّجه إلى كلِّ ما يمكن أن يخدم خير هذه النفس، تتّجه إلى التنقية من خطاياها وأهوائها. وبالطبع، الأمر الأوّل والأخير لدى التائب الحقيقيّ هو الاهتمام بنَفسه. لا يماثله أحدٌ في الذهاب إلى كنيسة الله بتواتر، والإصغاء بانتباهٍ بالغٍ إلى صلوات الكنيسة، وقراءة الكتاب المقدّس بحماسةٍ شديدة، والإسراع إلى مساعدة الآخرين. وكما أنّ مُحبّي العالم يسعون إلى الترفيه واللهو، هكذا يسعى الإنسان التائب إلى الدموع والرِّقة الروحيّة.

بهذه العلامات يمكننا أن نحكم على أنفسنا، أيّها الإخوة. إذا تعمَّقْتَ في سلوككَ ولم تستطع أن تقول بصدقٍ: "روحي تبتكر إلى هيكل قدسكَ"، فلا وجود لرغبةٍ صادقةٍ فيك في التوبة عن خطاياك. لأنَّه أيّةُ رغبةٍ هذه التي لا يُعبَّر عنها بالأفعال؟ فإنَّنا في هذه الحالة باطلًا نردّد الكلمات الأولى من هذه الترتيلة المقدّسة: "افتح لي أبواب التوبة!"، لأنّ المخلِّص الرحيم نفسَه سيقول: "إلى متى أفتح لكَ الأبواب باطلًا؟ أغلِقْ أوّلًا الأبواب والبوّابات أمام أهوائك وتجارب العالم، ومن ثمَّ تعالَ إليَّ مُصلِّيًا لتنال روح توبةٍ حقيقيّة". آمين.

نقلتها إلى العربيّة أسرة التراث الأرثوذكسيّ

Source: Saint Innocent of Kherson (2022), "Open to Me the Doors of Repentance, O Lifegiver: A Homily for Clean Monday", *OrthoChristian.* Link.